من روائع الشعر الاسباني المعاصر

مختارات من جوستافو أبكر

تقديم الدكتور احمد هيكل

كان علما من اعلام الرومانتيكية في اوروبا ، وقمة من قمم الشعرفي اسبانيا . وقد رأى نور الحياة في اشبيليه سنة ١٨٣٦ . وكان مولده بين أبوين رقيقي الحال ، ما لبثا ان مضيا الى العالم الاخروتركاه دون العاشرة ، صبيا تصالح عليه اليتم والفقر وسوء الحظ . التحق بمدرسة « سان تلمو » البحرية في اشبيليه ، لكنها مالبثت ان اغلقت ابوابها وهنا اتجه « بكر » الى ميدان اخر لعله انسب من البحرية لطبيعة الفتى الفنان ، اتجه الى قراءة الادب وتعلم الموسيقى والرسم . ولما اصبح على اولى عتبات الشباب ، ولما احس بان استعداده الفني قد نماه الاطلاع والمحاولة ، تطلعت انظاره الى مدريد ، حيث جذبته اضواء المدينة ، تلك التي كانت تزحم بالفنانين وطالبي المجد والثراء .. وكان مقدم « بكر » الى مدريدوهو في نحو الثامنة عشرة « سنة ١٨٥٤ » وكان قليل الحول ضئيل الزاد ، الا من موهبة اصيلة وطبيعة رقيقة وروح شفاف وجسدهزيل . وكلها ازواد لا تغنى وحدها في شق الطريق الطويل ، في قلب عاصمة مزدحمة قاسية مليئة بالمتسابقين الاقوياء .

لهذا عانى « بكر » كثيرا من الصعوبات وصادف عديدا من المشاق خلال مقامه بمدريد واشتغل بمختلف اعمال الترجمة والصحافة والتأليف ، ولكنه لم ينل نجاحا ذا شأن .. وقد عرف خلال ذلك امرأة احبها بكل جوارحه ، ونظم فيها من الشعر ما لفت اليه الانظار ، ثم تزوجها بعد حب عنيف ، ولكن الزواج لم يكلل بالنجاح فافترق الزوجان ، وعاش « بكر » من جديد مع الوحدة والالم ..

وقد شاء الحظ ان يبسم له مرة ، فعين رقيبا ادبيا لمدة اربع سنوات ، ولكن بسمه الحظ ما لبثت ان تلاشت ، وحل مكانها عبوس رهيب ، فقد مات اخ « لبكر » كان سندا له في مدريد وكان مثله يعمل في حقل الفن ، وان كان قد آثر الرسم على الشعر .. ولم يقو الشاعر على تحمل كل هذه المحن ،وهوالنحيل الجسد ، الرقيق المشاعر ، اليتيم النشأة الفاشل في الحب وفي نيل ما يستحق من مجد . لهذا لحق « بكر » باخيه بعد ثلاثة اشهر ، فمات ، وهو في عمر الربيع سنة ١٨٧٠ .

وكعادة الناس دائما ، تنبه الاسبان « لبكر » بعد موته وعرفوافضله بعد ان قضى نحبه ، فكتب على المنزل الذي توفى فيه في مدريد « هنا مات الشاعر » شاعر الحب والالم . ولا تزال اللوحة التي تحمل هذه العبارة تطالع من يمر بشارع « كلاوديوكويو » بعاصمة الاسبان . كذلك اقيم له نصب تذكاري في اكبر حدائق اشبيليه . كما نقلت جثته وجثة اخيه الى مدفن المجمع الادبي الاشبيلي الذي يضم رفات الخالدين من الفنانين ..وفي اسبانيا اليوم جماعة ادبية تعرف باسم « اصدقاء بكر » وهي تعنى بتراثه جمعا ونشرا ودرسا وتحليلا .. كذلك عبرت شهرة « بكر » الى امريكا اللاتينية المتحدثة بالاسبانية ، واصبح « لبكر » فيها منزلة الرائد الادبي ذي التلاميذ والمريدين .

وقد خلف « بكر » كثيرا من الانتاج الادبي بين اشعار غنائية وكتابات مسرحية وقصصية وتأمليه . واشهر اعماله الشعرية ديوانه المسمى « قواف » وهو مجموعة غنية من القصائد القصار والمقطوعات، التي يغني فيها الشاعر احاسيسه ووجدانه وكأنه يغمس القلم في قلبه. والطابع العام لتلك الاشعار هو الطابع الرومانتيكي الذي كان بكر قمة من قممه. وتمتاز اشعاره عن غيره من الرومانتيكيين بالصفاء القريب من الصوفية وبالرقة التي تذوب معها الكلمات ، وبالحزن الذي تحس معه دموع الجمل .. ولم تكن « رومانتيكة بكر » عدوى عصرية ـ رغم ان هذا المذهب كان مذهب ايام « بكر » وانما كانت « رومانيكية » شاعر نسارد فعل طبيعي لتلك الظروف التي احاطت به منذ مولده الى وفاته . فقد كانت كلها ظروفا تحمل على الانطواء والحزن والشوق والحنين ،وتدفع الى التعلق بالمجهول والاندفاع نحو المثل الاعلى ، والبحث عن الحنان في قلب الطبيعة امنا الكبرى ، والتنقيب عن السعادة في وجدان الحب ابينا الحنون .. وليس من شك في ان صلة « بكر » بالموسيقى وتعلقه بالتصوير ، قد اثر الى حد كبير في فنه الشعري، فامتلأ شعره بالحنان والصور والالوان .

اما اهم اثاره النثرية فهي مجموعته المسماة « اساطير » وهي عبارة عن قصص قصيرة خيالية اشبه في اسلوبها بالشعر المنثور . وهي نتاج طبيعي لمزاج « بكر » المتأمل المنطوي الحالم الشاعر .. وله ايضا مجموعة رسائل كتبها ايام استشفائه ببلدة « فرويلا » وقد سماها « من سجني » وهي تأملات في الحياة ، تتسم ايضا بالطابع الرومانتيكي ، الذي يرى الحياة كسجن كبير . و « لبكر » بعد ذلك مسرحيات لم تصل في الجودة الى مستوى شعره الغنائي او نثره القصصي والتأملي .

وقد ترجمت بعض اثار « بكر » الى كثير من اللغات . وكان لفنه الشعري اثر كبير فيمن جاءوا بعده من الشعراء الاسبان والامريكيين ، غير ان احدا ممن ساروا في اتجاهه لم يصل الى مستواه ، ولم ينل منزلته ، تلك المنزلة التي اقترنت باسم « بكر » بعد وفاته ، ولم يحظ بها شخصه في حياته ..

والمختارات التي سنقدمها في تلك الحلقة مما ضمه ديوان «بكر» المسمى « قواف » وسوف يلاحظ ان اغلبها مقطعات قصار شأن الطابع العام لهذا الديوان .

(١) « آه لو استطيع »

انني اعرف نشيدا ساحرا غريبا
يفجر في ظلام القلب فجرا من السنى
وهذه الصفحات من ذاك النشيد
انها نفحات عبقة ، ينشرها النسيم
في الظلال .

.....

لوددت ان اسطرها بكلمات منطلقة
لا تعرف القيود
ولكن عجزي كانسان ابى الا ان ناتي
في لغة مسكينة
ذات كلمات ، كانت مرة زفرات
ومرة بسمات ، ومرة الوانا ، رمرة
نغمات .

.....

انه — في الحق — لصراع قاتل ، الا
اجد حروفا
قادرة على حمل ما لدى من معان ،
فضلا عما عندى من احساس بالجمال
آه لو استطيع
اذن لغنيت احاسيس الكل على حدة .

.....

(٢) « نظرات »

حينما ارنو الى الافق الازرق ،
الذي يناغمني من بعيد ،
يخيل الى ان استطيع انتزاع نفسي
من تلك الارض الموحشة .
وانى استطيع ان اطفو على الغمام
العائم .

.....

حينما انظر ليلا فى الظلام العميق ،
والنجوم ترتعش كاجفان نار تخفق ،
يخيل الى انى استطيع الصعود على
خيوط ضوئها .
وانى استطيع ان انسى نفسي في
بريقها .

.....

ان بحر السك الذي يغرقني لا اعرف
فيه سبيلا لرشاد
ومع هذا ، فان ذلك الظما الى الافق
والسماء والضوء يقول لى :
انني احمل شيئا الهيا هنا .. في
داخلي .

.....

(٣) « روحان »

لسانان احمران من لهب
ينبعثان من موقد واحد
فيتقاربان ويلتقيان في قبلة
ويمتزجان في شعلة واحدة

.....

نغمتان من عود واحد
توقعهما يد واحدة في نفس اللحظة
فيلتقيان في الفضاء
ويتعانقان في ايقاع منسجم

.....

موجتان تقبلان معا
ونستلقيان على الشاطىء معا
وعند انديا حهما
تنوجان الرمال بالفضة

.....

هبتان من بخار رقيق
تنبعثان معا من بحيرة حالمة
وعند ملتقاهما هناك
تكونان غمامة شفافة بيضاء

.....

كفكرتين منطلقتين
وكقبلتين ملتمعتين
وكنغمتين متحدتين
تمتزج روحان : روحي وروحك .

٤ — « العودة »

سوف تعود البلابل السمراء
تعلق اعشاشها في شرفتك
ومرة اخرى
تداعب اجنحتها زجاج نافذتك وتندو
لكن تلك البلابل
التى كانت تنشر فى الجو حسنك
والتي كانت تدفىء النسيم بنجواي
تلك التي قد حفظت اسمي واسمك
تلك .. لا ... لن تعود .

. . .

سوف يعود الفل متسلقا عرائش
حديقتك
ومرة اخرى
في المساء يزداد حسنه ويبسم زهره
لكن تلك الفلات المبللة بالندى
تلك التي كانت تتطلع الينا وتتدفأ
ثم تساقط كمدامع النهار
تلك لا ... لن تعود
سوف تعود للحب في مسامعك
تلك الكلمات الملتهبة المرنة
وربما يصحو قلبك من حلمه ذات يوم
لكن .. هكذا في هذا الصمت
الاخرس . وذاك
السكون الاصم . وفي هذا السجود
على الركبتين
كما يعبد الله امام المحراب
هكذا كما احببتك ... تذكري ..
لن يحبك الاخرون !..

. . .

٥ — « الشاعرية »

روح بغير اسم
اكسير بلا هيئة
انني اعيش الحياة هكذا
فكرة بلا تجسيد

. . .

انني اسبح في الفراغ
مع الشمس الدافئة في الضحى
واملأ عيني من خلال الظلام
ثم اطفو مع الضباب .

. . .

انا البريق الذهبي فى النجمة النائيه
انا من القمر العالي ضوءه الحالم الفاتر
انا الغمام الملتهب الذي يغرق في الافق
انا من الفلك الدوار كوكب السنى

. . .

انا الثلج على القمم
انا اللهب في السهول
انا الزرقة في اعماق البحار
وانا نغمة في العود . ونفحة في البنفسج
واسى في اللحد . وذكرى في الحطام

. . .

انني اضحك في الروض المزهر
واهمس في المرعى العالي
واتنهد في النبع العميق
وابكي في الورق الجاف

. . .

انا على الهاوية حاجز لا يعبر
وانا بين السماء والارض
ذلك السلم الشفاف
الذي يصل الارض بالسماء

. . .

انا الشعاع الخفي الذي يربط . عالم المادة بعالم الروح
انا الاخر الامر . هذا الاكسير المجهول
ذلك العطر الخفي
انا هذا الروح الذي يترع منه كأس الشاعر

. . .

(٦) القيثارة المعفرة

في زاوية مظلمة من البهو
ربما كان قد نسيها صاحبها
ساكنه مغطاة بالغبـــار
انظر .. انهـا القيثارة

.....

كم نغمة تنام في اوتارها
كما تنـام الطيـور في الاغصان
حين تنتظر يـد البرد
تلك التي تعرف كيف توقظها

.....

اه لكم دار بخلدي هذا الخاطر
كم عبقرية تنام هكذا في اعماق الروح
حتى تفاجـأ بما يشبه الوحـي
يقول لها :
أستيقظي وسيري

.....

(٧) « الحياة والالم »

اليوم مثل الامس . والغد مثل اليوم
ودائما لا جـديد
سماء رمادية . وافق لانهائي
وسعي ... وسعي

.....

القلب يتحرك في حدود مرسومه
كانـه آلـة غبيـة
والذكاء يغفو مقيـدا
في زاوية من العقل .

.....

الروح الحالمة بالفردوس
تبحـث عنه ـ لكن بلا ايمـان
فهي مجهدة بلا هدف
كأنها موجة تندفع ولاتدري لماذا

.....

صوت لا يزال ،بنفس النغمه
يردد نفس الاغنيه
وقطرة ماء رتيبة تسقط
وتسقـط بلا انقطاع
هكذا تمضي الايام في تماثل
يخلف بعضها البعض
فاليوم نفس الامس
وكلاهما بلا لذة او الـم

.....

ان الالم مر .. ومع ذلك فالالم هو الحياة ..

(٨) « النهاية »

الى اين ماض انا ؟
الى النهاية .. الى العراء الشديـد الظلمة الكثيف الحزن .
الى واد من ثلج لا يذوب ، ومن ضباب دائم .. يفعم النفس بالانقباض ..
هنالك .. حيث تنتصب لوحـة حجرية .. بلا كتابة ما ،
هنالك حيث يعيش النسيان ..
هنالك .. سوف يكون قبري ..

جوستافو ادلفو بكر

ترجمة الدكتور احمد هيكل